

الخرجي في أمسية ثقافية يكشف عن موقع الأبوذية من الشعر الدارج

أشار الخرجي إلى أن الشعر الشعبي متعدد الأنواع والأسماء، وكل نوع منه ينتسب إلى شخص أو قرية أو عشيرة أو مدينة اشتهرت بنظمه أو بكتابته. ويرى بأن العراق يحتل قصب السبق في الإنتاج الغزير لمختلف أنماط الشعر الشعبي، وخاصة الأبوذية المنتشر في وسط وجنوب العراق وامتداداته في مقاطعة خوزستان الإيرانية، كما يسمّيها الباحث، والتي يقطنها العرب، ويتحدث أهلها بلهجة جنوب العراق بشكل عام كما يعتقد الباحث أيضاً. وبغية الوقوف على أصل هذا النوع من الشعر الشعبي وجذوره التاريخية انتقل الخرجي إلى المنظوم منه في النهضة الحسينية مستعيناً بالجزء الأول من كتاب "ديوان الأبوذية" للمحقق الشيخ محمد صادق محمد الكرباسي الذي صدر عن المركز الحسيني للدراسات بلندن، وفيه "تسقط" للأخبار هنا وهناك"، كما ذكر الباحث، "عن نشأة الأبوذية وتاريخها وشخصها وأماكن انطلاقها وامتداداتها". وفي محاولة للتقريب بين الشعر الشعبي والقريض من خلال إعادة كل كلمة شعبية إلى جذرها العربي الفصيح ذهب الباحث أبعد من ذلك حينما قال إن "المؤلف يشجّر أي شاعر شعبي يلتقيه على تضمين شعره بكلمات فصيحة لإخراج الشعر الشعبي من غموضه ووعورته اللغوية التي قد تستعصي على السامع العربي الذي يجد صعوبة في فهم اللهجة العراقية الدارجة.

استشهد الخرجي بعدد من الأقوال والتوصيفات التي توضح تركيبة الأبوذية وتحلل مبناها الخارجي، ولعل أول توصيف لفت نظره هو للمحقق الكرباسي الذي قال إن "شعر الأبوذية يتألف من أربعة أشطر، كل شطر منها مركّب من ثلاث تفعيلات، الأشطر الثلاثة الأولى والثانية والثالثة يلتزم فيها الجناس والرابعة لا بد وأن تنتهي بياء مشددة مفتوحة ملازمة مع هاء ساكنة". أما المؤرّخ العراقي ثامر بن عبد الحسين العامري فيقول عن الأبوذية أنه: "مؤلّف من بيتين بأربعة أشطر، ثلاثة منها في جناس واحد يتحد في اللفظ ويختلف في المعنى، وينتهي الشطر الرابع منه بحرفي الياء والهاء"، غير أن الكرباسي يعارضه ويرى: "أنّ الأبوذية بيت واحد ذو أربعة أشطر، ونادراً يؤلف منها قصيدة". وقد استشهد بأبوذية لعميد الشعر الحسيني الدارج الحاج جابر بن جليل الكاظمي الذي قال:

"مِنْ آخُدُوكْ بَنَاتِ الْغُصْنِ وَرَدَنْ
تَرْفِ وَنَسُومَكْ آعْلَاهِ الْمُحِبِّ وَرَدَنْ
أُرِيدَ آعْصِرْ عَزَبْ شِفْرَتَكْ وَرَدَنْ
أَخْمُ دُ نَارِكْ آلْتَسْتَعِيرْ بِيَّهْ".

أشار الخرجي إلى تعدد الأقوال في أصل كلمة "الأبوذية"، لكنها عند الكثيرين مركبة من كلمتي "أبو" و "ذيّة"، حيث تعني الأولى "ذو" أو "صاحب"، و "ذيّة" هي تخفيف لكلمة "أذيّة" ينطق بها صاحب الأبيات

بعد أن يُصاب بأذى خارجة كانت أم باطنة عقلية أم جسدية أو حسية أو أنه يحاول التأثير في نفوس الغير بما يؤديها" كما يذهب أنستاس ماري الكرمللي. ولهذا حاول بعض النقاد أن ينسب الأبودية إلى الأذى والتألم والتوجع الذي يدور عليه غالبية هذا النمط من الشعر الشعبي. أورد الخرجي عدداً آخر من احتمالات أصل كلمة أبودية منها "ذ + يه"، و "أبو + هية" أو تحريف لكلمة "عبودية" نسبة لقبيلة عربية اشتهرت بنظم الأبودية، أو "البادية" التي حُورت إلى أبودية، أو من "ابن اُدية" التي حُرفت هي الأخرى إلى أبودية، لكن الكرباسي ضعف هذه الآراء أو استبعدتها أو رأى فيها تكلفاً أو وضعها في خانة الاحتمالات. وهناك من ذهب أبعد من ذلك حينما أرجع التسمية إلى "الدوبيت" وهو نمط من الشعر الفارسي الذي عرف في بغداد أيام العهد العباسي. البعض الآخر رأى أن الكلمة إغريقية الأصل "Epodes" أسموها الإنكليز إن وقيل، "أبوذ" لفظوها العراق إلى الأنباط نقلها وحينما "Apodhia" وهناك من اشتط به الخيال فنسبها إلى "بوذا"! يا تُرى، ما علاقة الأبودية بالحكيم الهندي بوذا مؤسس الديانة البوذية. يقول الخرجي بعد أن اختمرت الفكرة في ذهن الكرباسي الذي انتبه إلى التطابق اللفظي بين التسميتين فقام بالبحث والتنقيب فوجد "أن لهم أبياتا شعرية ذات أربع أشطر ينشدونها في طقوسهم الدينية" تشبه تماما شعر الأبودية، واكتشف قواسم مشتركة بين نصوص شعرية يتداولها البوذ وشعر الأبودية منها "اتحاد عدد الأشطر، وتوحد قوافي الأشطر الثلاثة الأولى، وختم الشطر الرابع بـ "يه"، والاتحاد في استعمال نوعية التفعيلات" وما إلى ذلك، وخلص إلى القول: "لإن هذا اللون من الشعر المسمى بالأبودية قد تعود أصوله إلى الأدب البوذي"، ولكن كيف وصل هذا الشعر إلى العراق؟ هل وصل عن طريق التجار الذين كانوا يتنقلون بين البصرة والهند مثلاً، وكيف يمكن الاطمئنان إلى هذا الرأي الذي استبعده مؤنّف الكتاب ومُحقّقه.

اختلف الباحثون والنقاد على نشأة الأبودية فمنهم من أرجعها إلى الشاعر حسين العبادي كما ذهب ثائر العامري، لكن الكرباسي لم يطمئن لهذه النسبة لأنه لم يعزز قوله بالأدلة والأسانيد. ويعتقد الشاعر الكويتي عبد الله بن عبد العزيز الدويش أن الأبودية من مولّدات شعر الموّال، لكن الكرباسي يرى في استنتاج الدويش: "مجرد تخيل إذ أنهما يختلفان في الوزن واللون ولعل الذي حدا به لأن يقول ذلك إن تركيبة الموّال كتركيبه الأبودية حيث أن كليهما تنظمان على أربعة أشطر وفيهما جناس إلا انه غفل عن أن الموّال ينظم غالباً على أكثر من بيت واحد ذو ثلاثة أشطر ويكون الشطر الأخير رباطاً ولا بد أن يتحد قافيته وجناسه مع الأشطر الثلاثة الأولى، وكل هذا يبعد احتمال أن تكون الأبودية من مولّداته". فيما يرى الشيخ جلال الدين الحنفي أن الأبودية من الشعر الطارئ على بغداد، ولم يكن من إنتاج شعراء بغداد أصالة كما هو الحال في الموّال الذي يرى البعض أنه بغدادية عباسي المنشأ، وحاولوا إرجاعه إلى القرن الحادي عشر الهجري اعتماداً على مخطوط بغدادية قديم، لكن الكرباسي لا يرى في هذا المخطوطة دليلاً دامغاً وقاطعاً. يخلص الدكتور نضير الخرجي إلى أن شعر الأبودية قد اشتهرت به المدرسة العراقية وامتداداتها في خوزستان "عربستان" ولم يعهد أن نظم به غيرهم. فيما يعتبر الكرباسي أن

هرم شعر الأبوذية قائم على ثلاثة أضلاع وهم أمراؤه: " الملا حسين بن علي الكربلائي (ت 1328 هـ) من كربلاء المقدسة، والملا زاير بن علي الدويجي (ت 1329 هـ) من النجف الأشرف، وفي القاعدة شاعر الحلة جعفر بن مهدي الحلبي (ت 1298 هـ)، ويتربع على قمة الهرم شاعر الكوت حسين العبادي". أما أول من استعمل الأبوذية بطريقة النعي في الأدب الحسيني على وفق ما يذهب تامر العامري فهم: " عبد الأمير الفتلاوي (ت 1380 هـ) وعبود غفلة (ت 1356 هـ) وحسين الكربلائي. وعند الكرباسي أن الأخير هو في المقدمة يليه عبود غفلة ثم الحاج زاير الدويجي ثم عبد الأمير الفتلاوي". ولكثرة استعمال الأبوذية في الأدب الحسيني يعترف الكرباسي: " وكأنها ابتدعت لتكون المركب الذلول لريثائهم وقد أبدع الشعراء في استخدامها لأغراضهم في هذا المجال"، ومن ذلك قول الملا حسين الكربلائي:

"روحي اِمنِ الصَّيْرُ مَلَّاتٌ وَصَاحَتْ
اِوْ مِثْلَهَا مَا اَنْسَيْتَ حُرَّهْ وَصَاحَتْ
عَلَى التَّلَّ اَوْ كُفَّتْ زَيْدَبْ وَصَاحَتْ
نَادَتْ يَخْوَتِي يَهْلِ الدَّحْمِيَّة".

لا تقتصر الأبوذية على التوجع والتفجع والألم، وإنما تتناول كل أبواب الشعر وأصنافه وأغراضه الشعرية مثل الحكمة والغزل والمدح والثناء والحماسة والهجاء والفخر والحنين والعتاب والوصف الأخواني والوجداني وما إلى ذلك. ذكر الخزرجي أن من خصائص الأبوذية: " أنها مضغوطة المعنى فالأشطر الأربعة في الغالب تستوعب معنى قصيدة طويلة وتعطي صورة كاملة عن المعاناة"، ونوّه إلى أنها " تغنى على المقامات المنصوري والحياوي واللامبي والعنيسي والصبي وغيرها".

لا يعتقد الكرباسي أن الأبوذية يُنظم على وزن الوافر "مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن" لأن الوزن المعتمد فيها هو: "مفاعيلن مفاعيلن فعولن" وهو أقرب إلى الهجج بإضافة تفعيلة واحدة عليه وهي "فعولن"، لذلك فهو يرجح هذا الرأي. ذكر الخزرجي بأن الأبوذية له ألوان شعرية كثيرة " فهناك الأبوذية المطرّزة، والمدوّر، وذو الجناسين، والمربع، والمخمّس، والمشط، وذو الحاشية، والمطرشّر، والمطلقة، والمولدة والمقسومة". وأشار إلى أن أمير الأبوذية الملا حسين الكربلائي هو أول من أضاف شطراً خامساً بأربعة أجناس حيث قال:

"الألف لف الذوايب من نسلها
البي بادت اضلوعي من نسلها
التي تاهت أفكاري من نسلها
الشي ثاري الحواري من نسلها
الجيم وجنة الفردوس إليه".

فالنسل الأولى من تمشيط الشعر، والثانية من مرض السل، والثالثة من النسيان، والرابعة الذرية. توقف الخزرجي عند الأبوذية المولدة التي ينظمها الشاعر من وحي شاعر آخر كما فعل عبد الأمير

الفتلاوي وغيره من الشعراء. وهناك من ضمّ أبوذياته ببعض الكلمات الأجنبية الكوجراتية والإنكليزية مثل الشاعر الحاج زاير الدويجي. ذكر الخزرجي في نهاية محاضراته إلى أن الجزء الأول من هذا الكتاب قد ضم "289" قطعة مع أحد عشر فهرساً إضافة إلى دراسة نقدية باللغة الروسية كتبها الخبير بالدراسات الشرقية والإسلامية البروفيسور قسطنطين ماتيفيف الذي أشاد بالجهود الكبيرة التي بذلها الكرباسي في هذا البحث التراثي الشاق وثمّن النتائج القيمة التي توصل إليها. وفي ختام المحاضرة دار حوار بين جمهور مؤسسة الحوار الإنساني والدكتور نضير الخزرجي الذي دافع عن مجمل الآراء الواردة في الكتاب القيّم الذي حققه الكرباسي بوصفه جهداً علمياً رصيناً لا يتمكن منه إلاّ الراسخون في العلم.